ليل الصحراء تلال ورمال نابضة بالحياة، وتسطع في ليلها أضواء أرجوانية، ومتعددة الألوان حسب انعكاسها على الكثبان الرملية وعلى الارض والسماء والافق، ووراءه تغيب المدرسة ويغيب البيت، وتنطفىء أضواء الشوارع «متعبة وواهنة»، ينطوي شاطىء غزة على ظلام يتراجع فيه، وكالسماء المرتدة الى أعماقها، الى ذاتها، يتكوّر حامد مرتداً الى أعماقه، متأملاً ذاته ومسيرة أعوام طويلة من الثبات والصمت، بايجاز: تغيب غزة بما انطوت عليه من سكون وثبات وركون الى العادي والمألوف واتكاء على حائط العجز والانتظار، تمحى في ليلها العادي، وتجيء الصحراء فجأة: «مخلوقاً يتنفس على امتداد البصر، غامضاً ومريعاً وأليفاً في وقت واحد»[٣٥] تجيء سديماً غامضاً يتفتح مع وقع الخطوات.

ولئن كنا، في ضوء ما سبق، نقيم تعارضاً بين صورة غزة وصورة الصحراء، فمرد ذلك الى أننا لا نقبض على مدلولات أي من الصورتين الا من خلال حركية الدلالة المتعارضة بينهما؛ حيث في وسط هذه الحركة يقبع حامد، ومنظوره الرؤيوي النابع من مشاعره الخاصة، ومن وقع الاحداث التي يواجهها مع اختراقه للصحراء، كحدّ، أو مكان محرّم. ويظل المغزى العميق لهذه الدلالة ماثلاً في التناقض الحادّ بين المدينة الغارقة في ثباتها وصمتها المميت، والموغلة في ليلها العادي، والصحراء! الصحراء تتفجر حياة، والتي تنفجر فيها أحداث مفتوحة على توترات غامضة ستكون دالة على انفجار «زمن الاشتباك».

وعلى الرغم من أن غزة تمارس حضورها في النص عبر لحظة غياب، ومع نهوض الرؤية السابقة على ادماج بين غزة والمخيم، فإننا نلحظ تمايزاً طفيفاً تشي به الاشارة الى شوارع غزة وأضوائها المعلّقة، وهي أشياء يفتقدها المخيم؛ المعتم دائماً، والذي ينكفىء على أزقته وممراته الضيّقة، كما سنرى.

المخيم: تجسيد واقعي لسديم المنفى

ينثق المخيم كمكان هو منفى داخل الوطن، من خلال آلية التداعي، التي تحكم السرد الروائي في «ما تبقى لكم»، وهو يتشكّل وئيداً وئيداً عبر تداعيات حامد ومريم، ولا يتسم تشكله بأية استقلالية عن حركة الشخصيات ورؤاها، ومسار الاحداث وتطوراتها، ونظراً لانشغال الرواية بمتابعة تفجرات حدثين، متوازيين ومتقاطعين، يقع أحدهما في الصحراء، والثاني داخل البيت في المخيم، وينهض بالأول منهما «حامد» وتنهض «مريم» بالثاني، فإن الاشارات الدالة على المشهد الخارجي للمخيم، ستحوز على كثافة حضورها من خلال الحدث الثاني، وعبر تداعيات «مريم»، وذلك لأن هذا الحدث يقع في البيت الواقع في الحيز المكاني للمخيم، ونحن لا نطلّ على هذا الاخير الا من خلال الموقع الذي تتخذه مريم خلف النافذة، أو من خلال تداعياتها عن حدث ما قادها الى التحرك في أزقة المخيم وممراته الضيّقة أو المرور أمام أماكن يحتويها، ولقد دلّت القراءة الاستقرائية للفقرات ذات الصلة بالكشف عن المشهد الخارجي للمخيم، على وجود عشر فقرات فقط، تجيء تسعة منها على لسان مريم، وواحدة فقط على لسان حامد، وعبر تداعيات الاثنين، وهذا ينطوي على استنتاج مؤداه أن المكان لا يوجد الا من خلال علاقته بالشخصية والحدث، وتطورات الموقف الدرامي، والرؤية التي تنطلق منها الشخصية في علاقتها به، وهو ـ أي المكان ـ لا يعيش منعزلاً عن عناصر السرد الروائي ومكوناته المختلفة، والرؤيات التي تحدد هويته وتحكمه.

ووئيداً وئيداً، ومن خلال تتبع الاشارات الدالة على المشهد الخارجي للمخيم، كما وردت في